إشكالية الخطاب الشريفي في الجزائر العثمانية
أسرة بن قانة نموذجا.

أ. محمد أوجرتني
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يحتل الخطاب الشريفي في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني مكانة مهمة بما لعبه من أدوار أساسية، ومارس في كثير من المناسبات تأثيرا كبيرا على مجريات الأحداث، وبالرغم من ذلك تعاني الكتابات التاريخية الحديثة في هذا الموضوع قلة وتشكو نقصا واضحا يلقى بظلاله على هذا الجانب الأساسي من التاريخ الاجتماعي والديني[1]، وتحدث عنه المؤرخون من قبيل العارض حينما تناولوا بالدراسة تاريخ الأسر "الشريفية" في المنطقة.

ولعل أكبر وأهم إشكالية في مسألة الشريفية هي مدى صحة الانتساب لمصدر الشرف الذي يدعيه أصحابه ودلالته ومكانته، وكيف تحول هذا الفكر إلى قوة سياسية دافعة ومؤثرة، مسائل سأحاول مناقشتها في هذا الموضوع بدءً بالحديث عن علم الأنساب وأهميته في ميدان علم التاريخ، والفكر الشريفي وعلاقته بالتطورات السياسية ببلاد المغرب، هذا وقد اتخذت من أسرة بن قانة التي استوطنت منطقة بسكرة أنموذجا لهذه الدراسة.

---

[1] – ممن كتب في موضوع الشريفية في الفترة المعاصرة Jacques Berque و Houari Touati .

الأنساب : من فن كتابة إلى خطاب اجتماعي.

تَنَاوَلَ علمَ الأنساب[1] كثيرٌ من العلماء والمؤرخين معرفين له وشارحين أهميته، وفي هذا الشأن يقول النسابة "أحمد بن علي الداودي" في كتابه عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب:"وعلم الأنساب عظيم المقدار ساطع الأنوار أشار إليه الكتاب الإلاهي فقال سبحانه وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، وحثّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تعلموا أنسابكم لتصلوا أرحامكم، لاسيما نسب آل الرسول صلى الله عليه وسلم لوجوب توخيهم الإجلال والإعظام"[2].

وعرف العرب هذا العلم منذ القديم فَتَفَنَّنُوا في التفاخر بأنسابهم وبالغوا في ذكر أسلافهم وأجدادهم ومناقبهم، وفاخروا على أساسها بعضهم بعضا، وفي كثير من المناسبات الثقافية كعكاظ وذي المجاز، كان يلتقي الشعراء والخطباء ويَتَفَنَّنُونَ في ذكر الأمجاد والبطولات، وكانت تعلو الأصوات وتعلن عُلُوّ قبيلة على قبيلة أخرى، وَسَبْقَ قومٍ لقومٍ آخرين في مجال معين من مجالات الحياة السياسية والإجتماعية أو الثقافية.[3]

والعرب على خلاف غيرهم من الأمم والشعوب[4]، مهتمون بأنسابهم محتفظون بكياناها، ومن الضياع عندهم أن يجهل امْرُؤٌ نَسَبَهُ أو أن يكون دَعِيًّا أو زَنِيمًا لا أصل له ولا جذور ينتسب إليها[5]، ويُرْوَى أنّ أحد الخلفاء العباسيين بلغه أن "القائم

---

1 – النسب : لغة يعني القرابة، وهو مفرد والجمع أنساب، وكان دأب العرب أن يقولوا للرجل: استنسب لنا ؟ أي انتسب لنا حتى نعرفك، وفي الاصطلاح : هو علم، يعرف منه أنساب الناس وأصولهم، والغرض منه الإحتراز والحيطة عن الخطأ في نسب شخص معين لما في ذلك من الأذى.

2 – أحمد بن علي الداودي، عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، تحقيق رضا نزار، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1971، ص5.

3 – سمير عبد الرزاق القطب، أنساب العرب، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1968، ص 6.

4 – المرجع نفسه، ص 6.

5 – عبد الله بن محمد ابن الشارف علي حشلاف، سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول، المطبعة التونسية، تونس، 1929، ص 7.

بأمر الله" الفاطمي هَجَاهُ وشَتَمَهُ وشَتَمَ البَيتَ العَبَاسِيَّ كُلَّهُ، فرد عليه قائلا " يَاهَذَا عَرَفنَا فهَجَوتَنَا ولَو عَرَفْنَاكَ لأَجَبنَاكَ ".

ومع مرور الزمن اتخذ علم الأنساب أسسه وأصوله واتضحت أهميته، وصار جزءً من علم التاريخ والتراجم، الذي يكون فيه الإنسان محور كثير من التفاعلات والاجتهادات والمواقف، فصار علم الأنساب من العلوم المطلوبة والمعارف الضرورية، لما يترتب عليه من منافع ومعرفة بالأحكام الشرعية والشرائع الدينية[1]، فَالنَّاقِلُ للعلوم والقواعد الأصولية يجب ان تتوافر فيه جملة من الشروط الموضوعية، منها أن يَتَّضِحَ نَسَبُهُ ويثبت انتماؤه لبيت الصلاح والاستقامة والعدالة، فلا يصح أن تؤخذ هذه العلوم عن امرئ لا يُعْلَمُ أصلُهُ وفصله.

وقد وضع الفقهاء والعلماء جملة من المنافع لهذا العلم منها:

1- العلم بنسب النبي صلى الله عليه وسلم وأنه النبي القرشي الهاشمي الذي كان بمكة وهاجر منها إلى المدينة فانه لا بد لصحة الايمان من معرفة ذلك[2].

2- التعارف بين الناس حتى لا ينتمي أحد إلى غير آبائه ولا ينتسب إلى غير أجداده وإلى ذلك الاشارة بقوله تعالى: " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا ": وعلى ذلك "تترتب أحكام الورثة فيحجب بعضهم بعضًا وأحكام الأولياء في النكاح فيقدم بعضهم على بعض، وأحكام الوقف إذا خص الواقف بعض الأقارب أوبعض الطبقات دون بعض، وأحكام العاقلة في الدية حتى تضرب الدية على بعض العصبة[3] دون بعض، وما يجري مجرى ذلك فلولا معرفة الأنساب لفات إدراك هذه الأمور وتعذر تحقيقها"[4].

---

1 - ابن الشارف، المرجع نفسه، ص 7.

2 - أبوالعباس أحمد بن علي القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، 1959، ص 8.

3 - العصبة تعني الأهل والأقارب.

4 - القلقشندي، المرجع السابق، ص9.

3- الأخذ بعين الإعتبار النسب الشريف في تولي "الإمامة العظمى" (الخلافة الإسلامية) وقد ذكر "الماوردي" في كتابه الأحكام السلطانية، على وجوب أن يكون الامام قُرَشِيًا[1]، استنادا على المأثور النبوي "الأئمة من قريش" ويروى عنه أيضا قوله " قَدِّمُوا قريشًا ولا تتقدموها". فلولا المعرفة بعلم النسب لفاتت معرفة بطون القبائل وفروعها، وتعذر حكم الإمامة العظمى التي بها عموم صلاح الأمة وحماية المسلمين وكف الفتنة وغير ذلك من المصالح[2].

وقد ورد في مجاميع السنة النبوية كثيرا من الآثار التي تدعو في مجملها إلى اعتناء الفرد بنسبه وواجب معرفته وحفظه لما في ذلك من فضل وأثر طيب، فعن عبد الله بن يزيد مولى المنبعث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله (ص) كان يقول:" تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال منسأة في الأثر"[3].

ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر "حسان بن ثابت" أن يأخذ ما يحتاج إليه من علم نسب قريش عن أبي بكر الصديق[4]، ليكون مُلِمًّا بأنسابها وأمجادها وبطولاتها حينما يذكرها في أشعاره، بعدما تحولت المعركة بين النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين إلى معركة فكرية.وكان أبو بكر الصديق (ض) وأبو الجَهْمِ بن حُذَيْفَةَ العَدَوِي، وجُبَيْرٌ بن مُطْعِمِ بن عَدِيٍّ بن نَوْفَلِ بن عبد مناف، من أعلم الناس بالأنساب في فترة صدر الإسلام، ومعرفة القبائل وتاريخها وأيامها، وكان "دغفل بن حنظل" يضرب به المثل في معرفة الأنساب وقد كان له معرفة بالنجوم وغيرها من علوم العرب، ويروى أنه قَدِمَ مَرَّةً على "معاوية بن أبي سفيان" فاختبره ووجده عالما

---

1 - أثارت مسألة اشتراط النسب القرشي لتولي الخلافة الإسلامية (الإمامة العظمى) كثيرا من النقاش والجدال بين العلماء والفقهاء على مر العصور، خاصة في ما يتعلق بالنسب القرشي، ويمكن للقارئ لمزيد من الإطلاع والمعرفة الرجوع إلى أمهات الكتب التي تناولت هذا الموضوع وتحدثت عنه.

2 – القلقشندي، المرجع السابق، ص 10.

3 – السمعاني بن منصور التميمي، كتاب الأنساب، مؤسسة الكتب الثقافية، ج 1، لبنان، 1988، ص 19.

4 - ابن حزم الأندلسي أبو محمد علي بن أحمد، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، نشر دار المعارف، القاهرة، 1982، ص3.

فقال له أبو سفيان:" بما نلت هذا يا دغفل؟ فقال:" بقلب عقول ولسان سؤول وآفة العلم النسيان" فقال له معاوية : "اذهب إلى ابني يزيداً فَعَلِّمْهُ النَّسَبَ والنجوم".[1]

وأتقن كثير من التابعين والعلماء والمؤرخين علم الأنساب منهم البيهقي، وابن حزم الأندلسي(456 هـ)[2] وابن عبد البر يوسف النمري[3] القرطبي (463 هـ) ، وابن رشيق، وأبو الفضل عياض، وابن حماد، ، وعبد الرحمن ابن خلدون، والحافظ السيوطي[4] وغيرهم[5].

والحديث عن علم الأنساب وتطوره يحتل حيزا هاما ضمن مجال الرؤية عند كثير من المؤرخين خاصة عندما يتعلق الأمر بالأسر المحلية المؤثرة سواء خلال العهد العثماني أو قبله أو في بداية الاحتلال الفرنسي، وأسرة بن قانة من أبرز الأسر التي استبدت على الشريفية في تبوؤ المكانة السامية التي نالتها ولعب الأدوار الأساسية في المنطقة في هذه الفترة الهامة من تاريخ الجزائر، ويعتقد أن هذه المكانة لم تكن تحصل عليها هذه الأسرة دون سند ديني أو اجتماعي، وهو ما نقصد به " الأصل الشريفي" في حين نفى مؤرخون آخرون هذه المزاعم معتمدين على حجج مختلفة، واستمر الجدل في هذه المسألة مدة طويلة من الزمن.

وما زاد في هوة التباين اعتماد بعض المؤرخين على الروايات الشفوية التي تفتقد للدلائل الملموسة والبراهين القاطعة في مجملها، فصار من الصعوبة بمكان إلحاق هذه الأسرة بنسب معين ومن ثمة الفصل في جملة أخرى من القضايا المرتبطة به، ويعتقد أبو القاسم سعد الله أن الكتاب الجزائريون الذين جاؤوا بعد فترة ابن خلدون، لم يهتموا كثيرا بالأنساب باستثناء بعض المحاولات التي ذكرها بعضهم أمثال "

---

1 – ابن الشارف، المرجع السابق، ص 7.

2 – هو ابن حزم الأندلسي، من كبار علماء الأندلس في القرن الخامس هجري، توفي سنة 456 ه.

3 – هو أبوعمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي اشتهر بعدة مؤلفات منها "الدرر في اختصار المغازي والسير" و"جامع بيان العلم وفضله".

4 – هو أبو بكر السيوطي عبد الرحمن(الحافظ)، صاحب كتاب "تفسير الجلالين" و "تاريخ الخلفاء" توفي سنة 911 هـ .

5 – ابن الشارف، المرجع السابق، ص 7.

أبو حامد المشرفي الذي ذكر أن محمد بن أحمد المغراوي ألّف كتاباً سماه (تمييز الأنساب) أخذ منه نسب محمد بن علي أهلول المجاجي المتوفي سنة 1008م " لكن المؤسف أن الكتاب لم يطلع عليه أحد[1].

ويضيف سعد الله أن من ألّمع من تحدث في الأنساب في هذه الفترة هو أبو راس الناصري (ت سنة 1239 هـ) من خلال كتابه "مروج الذهب في نبذة النسب ومن إلى الشرف انتمى وذهب"[2] تحدث فيه عن نسب الأدارسة بالمغرب الأقصى لكونهم من أهم فروع الأسر الشريفية التي انتقلت إلى بلاد المغرب في العصور الأولى للإسلام، ويبدو أن المؤرخ كان حازما شديدا في تقصي الحقائق بعيدا عن التزلف والمداراة مما أثار عليه بعض قبائل معسكر لما جرّدَهَا من النسب الشريف[3]، وهو ما يثبت أهمية الإنتساب لبيت النبوة عند الناس وعدم استعدادهم للتنازل عن هذا الشرف بأي ثمن كان.

في مفهوم وتاريخية الخطاب الخطاب الشريفي.

الشريفية من شريف والجمع أشراف وشرفاء و(يقال شُرْفَةٌ في بعض الأحيان) ويدل أصل الكلمة "شرف" على العلو والرفعة والمكانة السامية، وتطلق على الشخص الخر الذي له آباء متقدمون في الشرف والرفعة[4]، ويعتقد بعض الناس[5] أن الصفات

---

[1] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع)، الجزائر، 1981، ص 362.

[2] – هو محمد بن أحمد بن عبد القادر بوراس المعسكري الجزائري، مؤرخ ونسّابة جزائري.

[3] – أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 363.

[4] جاء في تعريف الشرف ما يلي : الشرف مُحَرَّكُهُ العلو والمكان العالي والمجد، ولا يكون إلا بالآباء أو علو الحسب، والشَّرَفُ جبل قرب جبل "شريف" وهو أعلى جبل ببلاد العرب (معروف آنذاك في صدر الإسلام) وفي الشرف حمى، والشريف جمعه شرفاء وأشراف وشَرَفٌ بفتح الشين والراء، والشارِفُ من السهام: العَتِيقُ القديمُ، ومن النوق المسنة الهرمة، والشرِفُ أيضاً من الأَبْنِيَة: مالَها شَرَفٌ، والواحدةُ: شَرْفاء. وشَرَفَهُ كَنَصَرَهُ، وعَلَيْهِ شَرَفاً طالَهُ في الحَسَب، والأَشْرَفُ الخُفّاشُ، ومَشارِفُ الأَرْضِ: أعاليها، وشَرَّفَ اللّه الكَعْبةَ من الشَّرَفِ، وتُشَرَّفَ القَوْمُ، بالضمّ: قُلْتُ أَشْرافُهم.
انظر : الفيروزآبادي محمد بن يعقوب، المصدر السابق، ص314 .

[5] – لايزال إلى الآن كثير من الناس يعتقدون أن الآباء الأشراف يمنحون أبناءهم شرف النسب وأسراره وكراماته خاصة في المناطق الريفية الجزائرية حيث نجد شيوع عبارة " فلان معطية له "، أي ورث الكرامة والشرف عن آبائه وأجداده.

المحمودة في الآباء تنتقل بالوراثة إلى الأبناء والأحفاد، كما أن كثرة الآباء والأجداد شرط هام للشَّرف الضخم والنسب الرفيع الذي لايعلوه نسب آخر، وتطلق كلمة الشَّريف أيضا على الشخص ذي المكانة والجاه والسلطان، في مقابل الضعيف والوضيع الذي لا يملك من ذلك شيئاً[1].

وكانت كلمة "الشَّريف" تَرِدُ بهذا المعنى في كتابات الأربعة قرون الأولى للهجـــرة، فَنَجِدُهَـــا عند البلاذري (ت 179هـ) في كتابه "أنساب الأشراف" وعند ابن قتيبة في "عيون الأخبار" وعند ابن عبد ربه في "العقد الفريد"[2]، وغيرهم.

وبالرَّغم من أنَّ الإسلام أقرّ مبدأ المساواة بين جميع العرب ثمَّ بين جميع المسلمين لقوله تعالى " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم من ذَكَر وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُم عندَ اللهِ أَتقَاكُم إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"[3]، وقول رسول الله (ص) في خطبة الوداع:" أَيُّهَا النَّاسُ إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كُلُّكُم لآدَمَ وَآدَمُ من تُرَاب، أكرمكم عند الله أتقاكم وليس لعَرَبِيّ عَلَى عجَميّ فضل إلاّ بالتَّقوَى"[4]، وبالرغم من تقلص وتراجع دعوات الانتماءات القائمة على العصبية للجنس أو اللون أو القبيلة ولو لفترة معينة[5]، فإن هذا المبدأ لم يستطع أن يتغلب دائما على الشعور بالاعتزاز القديم بالنسب الشريف وأمجاد الأوائل[6]، وكان الأشراف في كثير من الأحيان يُمْنَحُونَ لفضلهم تدبير شؤون القبيلة أو شؤون أهل المدينة التي يقطنونها، فصاروا هُمْ رؤساء القبائل ذات الشأن والجاه يرون أنفسهم أهل الفضل والشَّرف والعزّ، في مقابل الأراذل والسّفهاء والسُّوقة.

---

1 – محمد ثابت أفندي و زكي إبراهيم خورشيد، دائرة المعارف الإسلامية، المجلد 13، 1933، بدون معلومات، ص 266.

2 – المرجع نفسه، ص 266.

3 – سورة الحجرات، الآية 13.

4 – عز الدين بليق، منهاج الصالحين، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، 1984، ص883.

5 – عبد الباقي علي محمد:" أنساب العرب ودعوى الطوطمية "، مجلة سيرتا، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، العدد1، ماي 1979، ص 29.

6 – محمد ثابت أفندي، المرجع السابق، ص 266.

الشَّريفية، بدايات الظهور والاختلاف

إذا كان لفظ "الشَّريف" مفردةٌ بسيطة لغةً، فإن مدلوله عميق وواسع ويختلف من جهة لأخرى ومن بلد لبلد آخر، وعلى امتداد العصور، فقد كان أهل مصر يَنْسِبُونَ الشُّرَفَاءَ لآل الحسن والحسين، بينما راح أهل العراق يُلْصِقُونَ هذه الصفة بآل العباس(ض) ويعتقد أهل مصر أن الشرف أنواع فمنه شرف عام يجمع أهل البيت كلهم دون استثناء وشرف خاص بذرية الحسن والحسين رضي الله عنهما[1].

أمَّا بلاد المغرب فيُرَجِّحُ جُلُّ المؤرخين ظهور الشريفية بها إلى تزايد تأثير الفكر الشيعي الزيدي، والذي لعب العلويون (أدارسة وسليمانيون) فيه دورًا كبيرًا، خاصة في التمهيد لظهور الدعوة الإسماعيلية فيه: التي تزعّمها الفاطميون بواسطة الدَّاعية أبي عبد الله الشيعي في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري.

ونظراً لاعتماد أتباع المذهب الشيعي ودعاته على تمجيد آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب وابنيه الحسن والحسين[2]، هذا التمجيد الذي يعدّ صُلْبَ وجَوْهَرَ العقيدة الشيعية، فقد تزايد في مقابل ذلك تعظيم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وآل بيته استنادا إلى قوله تعالى:(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)[3]، فصار الانتساب إلى بيت النبيّ صلى الله عليه وسلم علامة شرف خاص، لا يظفر به إلا من أثبت نسبه إليه، وآل البيت هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس[4].

---

[1] – ابن الشارف، المرجع السابق، ص 20.

[2] – يفضل الشيعة الإقتداء والتبجيل أكثر للحسين بن علي بن أبي طالب، لأنه يمثل في رأيهم الرمز الفعلي والصادق لمعارضة نظام الحكم الأموي: الذي سلب حق آل البيت في الخلافة، وقد قتل رضي الله عنه في موقعة كربلاء سنة (61) هـ، وبعث القائد الأموي ابن أبي زياد برؤوس الحسين وثلة من أتباعه إلى يزيد بن معاوية الخليفة الأموي فَسُرَّ بقتلهم أولا، ثم ندمَ لَمَّا مَقَتَهُ المسلمون على ذلك وأبغضه الناس، انظر: أبو بكر السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج 1، دار المنار، دمشق، ص 208.

[3] – سورة الأحزاب، آية 33.

[4] – محمد ثابت أفندي، المرجع السابق، ص 267.

ومن خلال هذا العرض يبدو أن البذور الأولى للشريفية كانت ذات أبعاد سياسية محضة، اتخذت لها مكانا مُهِمًّا في المجتمع المغاربي، واستندت على جملة من المحفزات التي مفادها واجب احترام الأشراف وإظهار التعظيم والولاء لهم والدفاع عنهم، وما يتبع ذلك من إلتزامات سياسية، إن هُمْ فكروا أو سَعَوا لبسط نفوذ واكتساب سلطة سياسية، فالواجب الديني والشرعي إذا يقتضي تأييد دعوتهم لانتمائهم لبيت النبي، ولا مفر من أداء هذا الواجب أو التقاعص عنه.

واستدلّ بعض دعاة الشيعة بما ورد في بعض السنن، لتحقيق غاياتهم وطموحاتهم في نيل السلطة وبلوغها بدعم من الأتباع المدفوعين بحب آل البيت: كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ كُلّ نَسَبٍ وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نَسَبَهُ وصهره[1]، وَرُوِيَّ عنه أيضا في حديث آخر قوله: " النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لأمتي "[2] وهو حديث موضوع وغير ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم لأن الذي رواه من المجروحين[3] (عند أهل السنة)، فَبَطُلَ الاحتجاج به[4]، وقوله أيضا" لن يعذب الله أهلَ البيت بالنار وأول الناس دخولا للجنة أهل البيت"[5].

---

1 – قاله الإمام أحمد قال حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا أبو بكر المسور بن مخرمة عن عبيد الله بن أبي رافع عن المسور (ض) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فاطمة بضعة مني يقبضني ما يقبضها ويبسطني ما يبسطها وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري " رواه الشيخان البخاري ومسلم .

2 – رواية هذا الحديث هو موسى بن عبيدة بن نسطاس الربذي،كان من خيار عباد الله نسكا وفضلا وعبادة وصلاحا إلا أنه غفل عن الإتقان في الحفظ حتى يأتي بالشيء الذي لا أصل له متوهما، ويروي عن الثقات ما ليس من حديث الأثبات من غير تعمد له، فبطل الاحتجاج به من جهة النقل وإن كان فاضلا في نفسه. وقال علي بن المديني : موسى بن عبيدة ضعيف يحدث بأحاديث مناكير، وقد أورد الحديث السابق ذكره في هذا السياق : أخبرنا أبو يعلى قال حدثنا أبو خيثمة قال حدثنا إسحاق بن سليمان قال سمعت موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار وروى عن إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لأمتي " انظر: أبو حاتم محمد البستي بن حبان، المجروحين، دار الوعي، حلب، بدون تاريخ، ج2.

3 – "المجروحين": الجرح لغة إحداث أثر في البدن يسيل منه الدم، ويستعمل اللفظ اصطلاحا في مجال علم الحديث للدلالة على ظهور وصف في الراوي يثلم (يخدش) عدالته أو يخل بحفظه وضبطه، ويترتب عليه رد روايته أو تضعيفها .

4 – ابن حبان، المرجع السابق، ص 234.

5 – هذه الأحاديث المروية ساقها محمد ثابت أفندي في دائرة المعارف الإسلامية على أساس أنها كانت تحض الناس على الولاء لأهل البيت لما في ذلك من الخير، وحديث "لن يعذب الله أهلَ البيت بالنار ... بحثت عنه في كتب السنة المشهورة دون أن أجد له أثرا، فقد يكون من الأحاديث الموضوعة.

هذا وقد شكّل موضوع الانتساب لأسرة النبي صلى الله عليه وسلم محورَ خلاف كبير بين الناس قديماً وحديثاً، من حيث المدى الذي يمكن أن تصل إليه شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لآل بيته يوم القيامة، فمنهم من بالغ في نيل شفاعة النبي، حتى لو كان المنتسب لآل البيت من أهل المعاصي والآثام، بينما قيّدها آخرون بشرط العمل الصالح وفعل الخيرات، إذ دلّت الكثير من الأحاديث الصحيحة صراحةً على ضرورة العمل الصالح، والحثّ عليه لأنه هو السَّبيل الوحيد للنجاة من النار يوم القيامة، مصدقاً لقوله تعالى : " فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ"[1].

وعن حمزة بن أبي سعيد الخدري عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما بال رجال يقولون إنّ رحم رسول الله (ص) لا تنفع قَوْمَهُ، بلى والله إنّ رَحِمِي موصولةٌ في الدنيا والآخرة، وإني أيها الناس فرط لكم، (أي أتقدمكم إلى الحوض يوم القيامة) إذا جئتم قال رجل : يا رسول الله أنا فلان بن فلان، وقال: أخوه أنا فلان بن فلان، فأقول لهما : " أمَّا النَّسَبَ فقد عرفت ولكنكم أحدثتم بعدي وارْتَدَدْتُمْ الْقَهْقَرِيّ"[2] (أي غيّرتم سُنّتي وتراجعتم عنها وجئتم بالبدع) .

وعن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" يا بني عبد مناف اشتروا أنفسكم من الله، يا بني عبد المطلب اشتروا أنفسكم من الله، يا أمَّ الزبير بن العوام عمة رسول الله، يا فاطمة بنت محمد، اشْتَرِيَا أنفسكما من الله، لا أملك لكما من الله شيئًا، سَلاَنِي من مالي ما شئتما". رواه الشيخان البخاري ومسلم[3]، ويتضح من خلال هذه الأحاديث الصحيحة، أنّ الإعتماد كليا على النسب لآل بيت رسول الله (ص)، دون رَصِيدٍ من العمل الصالح والإخلاص، قد يعرض صاحبه إلى الإفلاس والخسران يوم القيامة، غير أن ذلك لم يمنع الناس من العناية

---

1 - سورة المؤمنون، آية 101.

2 - إسماعيل ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 4، دارالشعب للنشر، القاهرة، بدون تاريخ ص222.

3 - أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح المختصر، ج3، ط3، دار ابن كثير، دمشق، 1987، ص 1298، ومسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، ج1، دار إحياء التراث العربي، لبنان، 1955، ص 192.

بالنسب الشريف، الذي صارت له مكانة مرموقة في نفوس المسلمين وتنافسوا في خدمة آل البيت وحبهم وطاعتهم وولائهم، وقد صرح بما يقتضيه هذا النَّسبُ الشَّريفُ على الناس من واجبات الحب والولاء، ما ينسب للشافعي من شعر قوله :

يا آل بيتِ رسـولِ اللهِ حُبُّـكُمْ فَرْضٌ عَلَيَّ وفي القـرآن مكتوب

وينسب له أيضا :

يا آل بيت رسول الله حُبُّـكُمْ فَرْضٌ مِنَ اللهِ في القـرآن أَنْزَلَـهُ

يكفيكم من عظيم الفخر أَنَّكُـمْ مَنْ لَمْ يُصَلِّ عليكم فلا صـلاة لـه.

رواج الخطاب الشريفي عند المغاربة.

يعتقد " ألفرد بل" Alfred Bel ، أنَّ "صفة الشريف صَارَ لها سِحْرٌ عند البربر في بلاد المغرب وأصبحت لقبًا هامًا يتلقب به رؤساء الفرق الصوفية، والصوفية العاديُّون، يُـثَبِّتُهَا لهم أوْ يَخْلَعَهَا عنهم، عن خطأ أو صواب من ترجموا لهم من مؤلفي كتب التراجم الصوفية وواضعي كتب الأنساب على مر العصور"[1]، ويعني ذلك أن فكرة الشَّرِيفيَّة تكون بالتالي قد فقدت شيئاً من مضمونها ومصداقيَّتها، وخضعت مع الوقت لأمزجة الكتاب والمؤرخين، وربما لرجال النفوذ والسلطة يستغلونها في توجيه مراكز القوة لصالحهم، مما يعني أن السلالات الشريفية الحقيقية قد فقدت عنصرا مهما من عناصر تأكيد هويتها الشريفية، سواء تعلق الأمر بطريق الرواية الشفوية المتواترة، أو بالكتابات والآثار المخطوطة.

ورغم ذلك فما من قبائل بلاد المغرب في العصور الوسيطة أو الحديثة مَنْ خَلَتْ مِنَ الأسر الشريفية والصوفية، فقد كانت كل واحدة تستبقي بين ظَهْرَانَيْهَا أمثال هؤلاء الشرفاء، يعطونهم الأرض والمنافع العديدة ويجعلون منهم شيوخاً روحيين وحماة صوفيين، فمكانة القبيلة وسط نظرائها آنذاك تقاس بما تضمُّه من هؤلاء الأولياء

[1] – ألفرد بيل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي إلى اليوم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، 1989، ص 422.

الأشراف، تَسْتَجْدِي صِدْقَهُمْ وَقُرْبَهُمْ وَتَقْوَاهُمْ وَتَدْفَعُ بِهِمُ الأَذَى وَتَذُودُ بِهِمْ نَوَائِبَ الدَّهْرِ وَصُرُوفَهُ[1].

وهكذا فإن الشُّرفاء، كَفِئَة متميزة قد نالوا حظوةً ومكانةً قد لا تحصل لغيرهم بسهولة خاصة بالمغرب العربي، حيث وجدوا خير ترحيب من جانب السكان، وصار هؤلاء الشرفاء بمثابة دعائم القبيلة وعنوان وجودها، وحسب تعبير "ألفرد بيل" فقد نشأت نبالة دينية في القبيلة، وجرى تنظيم اجتماعي جديد وطبقة سياسية ودينية جديدة.[2]

لكن كثيراً من العلماء يطعنون في صدق أنساب هؤلاء الشرفاء[3]، ويرجحون ضياع الأنساب وَتَلَفِهَا بسبب تَقَادُمِ الزمن وتعاقب الأجيال، وقد عَبَّرَ عن ذلك أبو راس الناصري بقوله :" إن امتياز النسب اندرس (زال) في هذا الزمان، فلا يكاد يتفق فيه اثنان حتى يقع اختلافا كثيرا في الأمة الواحدة لإختلاط الأنساب وتباين الدعاوي"[4]، إذ صار جل الأشراف ينسبون إلى الأوطان التي نزلوا بها والبلدان التي سكنوها، حيث اندمجوا وانصهروا في البربر والعرب، الذين سكنوا بينهم وفضّل بعض الأشراف إخفاء نسبهم لسبب أو لآخر[5]، خشية من متابعة أو مضايقة من السلطة القائمة، أو رغبة في الزهد ورفع التكاليف والحرج عن الناس.

النسب الشريف لأسرة بن قانة بين الادعاءات العائلية والحقائق التاريخية.

تمثل أسرة بن قانة التي كانت تقيم في منطقة الزاب أواخر الفترة العثمانية وخلال الوجود الاستعماري الفرنسي بالجزائر، مثالا مناسبا للأسر الجزائرية التي

---

1 – ألفرد بيل، المرجع السابق، ص 433.

2 – نفس المرجع، ص 422.

3 – يعتقد المفكر المعاصر سعيد رمضان البوطي نقلا عن والده أن البحث في تفاصيل النسب ورسم مسارات الانسان في " ظلمات الماضي" لا يجنب صاحبه الوقوع في أخطاء وهفوات والأولى تجنب التحقيق في هذا الشأن لصعوبته الجمة واستحالته في بعض الأحيان، انظر : سعيد رمضان البوطي، هذا والدي، ط3، دار الفكر، دمشق، 1995، ص 13.

4 – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص 363.

5 – ابن الشارف، المرجع السابق، ص37.

استخدمت الخطاب الشريفي وحاول أفرادها إثبات نسبهم إلى بيت النبوة لتثبيت مكانتهم الإجتماعية والسياسية. والثابت أن إشكالية انتماء أسرة بن قانة الشريفي من عدمه لم يبرز خلال الفترة العثمانية وإنما ظهر مع بداية الاحتلال الفرنسي حيث سارعت بعض الأسر إلى إعلان ولائها للغازي لتمكينها من المحافظة على نفوذها ومكانتها.

وقد اقتصرت في تحليل هذه النقطة ومناقشتها على ثلاثة آراء أساسية في اعتقادي تَنَاوَلَتْ النسب الشريف للأسرة، وتتمثل في رأي صاحب مذكرات الأسرة "بوعزيز بن قانة " شيخ العرب ببسكرة والذي يعتقد أنه ينحدر من أسرة عريقة من وادي ريغ، وقد تحصلت أسرته على منصب شيخ العرب خلال العهد العثماني و ظفرت به أيضا بعد الاحتلال الفرنسي ابتداء من 1839، وكان ولاؤها لفرنسا تاما حيث ساهمت في التخفيف من حدة التمرد و الثورات التي عاشتها البلاد كثورة المقراني سنة 1870". ونال بوعزيز مشيخة العرب لآخر مرة سنة 1929 .

وأما الرأي الثاني فصاحبه هو "قوفيون" الذي نهج عكس الباحث "فيرو" تماما في معالجة تاريخ الأسرة لأسباب مختلفة وأضفى عليها كثيرا من الأمجاد والشرف والبطولات والكرامات بدون دليل وبينة، وتناول النسب الشريف لبن قانة في فترة متأخرة وأثار عدة علامات استفهام هو الآخر "علي حشلاف" في كتابه "سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول"، وكانت لكتابات شارل فيرو المترجم العسكري حول تاريخ الأسرة جدلا كبيرا، وسأتناول هذه الآراء بالتحليل والمناقشة في هذا العرض.

بوعزيز بن قانة : أسرتنا شريفة ولا مجال للشك.

اكتفى بوعزيز بن قانة أغا الزيبان في كتابه[1]، بالتأكيد أنّ لأسرته أصلاً شريفيًا واتصالا ببيت النبوة الطاهر، لكنه لم يطرح الأدلة الكافية التي تثبت هذا النسب، باستثناء تلاوته لشجرة نسب الأسرة بشكل تنازلي حتى أوصلها بعلي بن أبي طالب(ض)، وذكر أنه نقل شجرة نسب الأسرة من كتاب "الأنساب" لصاحبه "محمد العشماوي"، واستخلص بوعزيز بن قانة من هذه الشجرة الفروع الكبرى التي منها تنحدر أسرته وتتمثل في قبيلة "بني عطا" وقد ذكرها كما ما يلي:

بَنِي عَطَا، والقَنْوَاتْ، ووتُوغَة، وأولاد مَهْدْ كانوا يسكنون جبل عفرون غير بعيد عن بني يسنوس، وجدهم الأول يدعى مهد أو محد (محمد) المدعو بن مسعود بن موسى بن عزوز بن عبد العزيز بن جبار بن عمران بن سالم بن عبد الله بن أحمد بن ادريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن حسن السبتي بن الإمام علي بن أبي طالب زوج فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم[2].

لكنه يضيف في نفس الكتاب في صفحات أخرى بأن بني عطا يقيمون بالعطاف[3] وجدودهم هم سليمان بن محمد العطاف بن محمد بن مسعود، أما القنوات فيسكنون في منطقة العدوة أي المناطق الساحلية الشمالية غير بعيد عن أفريقية (تونس) وجدهم الأكبر هو محمد بن مسعود، وإلى القنوات يزعم أغا الزيبان انتماء أسرته، وهذا بحكم التقارب في الألفاظ ودون أدلة ثبوتية وهو ما يتناقض مع رأيه السابق.

ويؤكد أغا الزيبان أن نفس هذا النسب أكده شيوخ الأسرة الأوائل للباحثين الفرنسيين، رغم أنه في مقدمة كتابه المشار إليه، والذي تحدثنا عنه في مقدمة هذا البحث، يؤكد أن الأسرة لم يتصل بها أحد من المؤرخين، وأن وثائق الأسرة من مراسلات ومخطوطات لم يطلع عليها كائن، باستثناء القبطان سيروكا الذي حضر

---

[1] – BenGana Bouaziz (le cheikh el arab) , Une famille de Grands Chefs Sahariens : les Bengana .édition Soubiron , Alger ,1930 .

[2] - BenGana .B , Op.cit , p 22.

[3] – مدينة "العطاف" توجد قرب مدينة الشلف، وتبعد عنها بنحو 26 كلم.

احتلال الزاب وتوقرت" وكانت له اتصالات مع شيخ العرب بوعزيز بن بوالخراص بن قانة، وكان له بفضل ذلك إمكانيات كبيرة في أن يستجوب شيوخ القبائل في هذه الجهة، فكان تاريخه الذي كتبه عن الأسرة أفضل ما كُتِبَ وأَقْرَبَ إلى الحقيقة"[1].

قـــوفـــيون[2](Gouvian) الروايات الشفوية والمكتوبة تؤكد النسب الشريف للأسرة.

أكّد قوفيون النسب الشريف لأسرة بن قانة معتمداً على الرواية المذكورة سابقا من جهة، وعلى شجرة النسب التي أعاد صياغتها أبناء الأسرة وأكّدها شيوخُ قسنطينة وأثبتُوها حسبما يذكر من جهة ثانية، والسؤال الذي يطرح في هذا الصدد هو: ما هي هذه الإثباتات والأدلة التي تحدث عنها قوفيون يا ترى ؟ وهل يمكن أن ترقى إلى مستوى لا يحوم حوله الشك ؟

وقد ساق قوفيون جملة من المبررات جعلته يُثَبِّتُ انتساب أسرة بن قانة إلى بيت النبوة الشريف، غير أن ما ذهب إليه لا يخلو من الغموض والنقص في بعضها، مما يدعونا إلى إعادة قراءته والنظر فيه، ويمكننا في هذا العرض المختصر أن نشير إلى جملة من الملاحظات منها:

عندما ذكر قوفيون شجرة النسب متسلسلة ابتداءا من بوعزيز بن قانة الأغا الحالي الذي عاصره في بداية القرن العشرين، وصولا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، يقول قوفيون أن هذه الأصول الشريفية أثبتها الكثير من العلماء والقضاة الذين لا يمكن أبدا أن نَشُكَّ في إيمانهم وعلمهم، وقد ذكر منهم الشيخ أحمد بن محمد الحسائي، وسي محمد الموفق الحفصي، والشيخ عبد القادر المجاوي أستاذ علوم الدين بالمدرسة الثعالبية بالجزائر العاصمة، والشيخ ابن الوادفل، وسيدي الدراجي، والشيخ درويش، والشيخ

1- BenGana .B , op.cit , p.10.
2- Gouvian (Marthe et Edmond) , Kitab Ayane el Maghariba, imprimerie Oriontale Fontana Frères , Alger , 1920 .

عبد الحميد بن باديس[1]، مما يدفعنا للتساؤل حول الأدلة التي اعتمدها قوفيون في إثبات هذه الروايات؟ فهل ترك هؤلاء الشيوخ و العلماء الذين ذكرهم هذه الأقوال في أثر مكتوب؟ وإذا كان هؤلاء الشيوخ قد تركوا هذه الشهادات في أثر مكتوب فلماذا لم يشر إليه قوفيون ليقطع الشك باليقين ؟ أم أن المسألة لا تعدو أن تكون رواية شفوية سمعها المؤلف وتناقلها أناس معينون في فترة كتابته لمؤلفه، فهي شهادات و روايات تفتقد للقيمة العلمية، وموضوعيتها التاريخية مَحَلّ نقد، لأن صاحبها لم يزودنا بالدليل الكافي الذي يثبت صحة كلامه.

لما حاول قوفيون إثبات الأصل الشريفي لبن قانة كغيرها من الأسر الإقطاعية الكبيرة في البايلك، انطلاقا من السلالات الشريفية التي استوطنت المغرب الأوسط ابتداء من القرن السابع والثامن والتاسع الهجري، والتي جعلها تنحدر جميعها من سلالة الأدارسة الأشراف بالمغرب الأقصى، ذكر أنه "بعد وفاة إدريس الثاني اقتسم أبناؤه الإثني عشر مُلْكَهُ، فكان من نصيب ابنه الحادي عشر واسمه "داوود" مملكة تلمسان وضواحيها"، لكن الراجح أن ابنه "محمد بن إدريس" أكبرَ أبنائه، هو من قام بتقسيم البلاد بين إخوته[2]، حتى يشاركوه السلطة ولا ينازعوها، وكان هذا التدبير عملا برأي

---

[1] – إن إشهاد بعض الشيوخ المصلحين أمثال الشيخ ابن باديس (1889 – 1940) على صحة نسب ابن قانة الشريفي، يبقى قابلا للطعن بحكم أن الشخصيتين على طرفي نقيض في كثير من المسائل المبدئية، فابن باديس كان من أشد المعارضين لسياسة الإدماج والذوبان في الشخصية الفرنسية، على خلاف بوعزيز بن قانة أغا الزيبان، الذي كان مدافعا عن خط السَّيْر الذي انتهجته أسرته منذ ارتمائها في أحضان سلطة الإحتلال الفرنسي، فمن غير المعقول أن يُلْبِسَ ابن باديس علي بن قانة هذا الشرف وقد علم منه ومن أسرته ولاءهم الكبير لفرنسا ومواقفهم "غير الوطنية".وكذلك الأمر بالنسبة لـ"الطيب بن الوادفل" و"عبد القادر المجاوي".

اما إذا كان قوفيون يقصد بالشيخ بن باديس" محمد بن باديس" الذي تَعَتَهُ ابن جلول وأصدقاؤه من جماعة النخبة، بجماعة "الوي وي"[1] فالمسألة مختلفة تماما ولا تطرح هذه الأبعاد التي تناولتها سابقا.

[2] – أبو القاسم ابن أبي الدينارالقيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، المطبعة التونسية، 1286هـ ، ص 59.

جدته كترة[1]، كما أن إمارة تلمسان كانت من نصيب "حمدون"(حمزة) وكذلك مدينة "وليلي" و"وطيط"[2] وليس من نصيب "داوود" كما ذكر قوفيون[3].

ويضيف أن هذا الأخير "داوود"، ترك بعده ابنَهُ "يَحْيَى" الذي اشتهر بعلمه وحكمته، فأنشأ قبيلة قوية هي " أولاد سيدي يحي" ومن هذه القبيلة ينحدر الشرفاء الذين أقاموا في المغرب الأوسط، خاصة صحراء سيدي عقبة وجبل عمور في القرن السابع والثامن والتاسع الهجري، حيث قاموا بنشر الدعوة والإسلام ومبادىء القرآن هناك، وزاد في انتعاش هذا الجو الديني استقرار العائلات القوية في الجهة الشرقية منها: عائلة عبد المؤمن التي منها أمراء الركب(الحج)، وعائلة بن لفقون التي منها شيوخ الإسلام، عائلة بن باديس ومنها القضاة والكتاب، وعائلة بن قانة الإداريون والمقاتلون[4]..

وإذا سلمنا بهذا الإستنتاج الذي ذكره قوفيون فبماذا نفسر ذلك الصراع الذي نشب بين هذه الأسر على مجالات السيادة والمناصب القيادية كالإفتاء وقيادة الركب ومشيخة الإسلام في فترة الوجود العثماني خاصة ؟ كالصراع الذي تجلى بين عائلة عبد المؤمن وعائلة بن الفقون ؟ وعمل الأتراك على تغذيته وتأجيجه..[5]

ومايدعو أيضا للطعن في رواية قوفيون ما أورده من أخبار فيما يتعلق بحركة انتقال السلالات الشريفية في بلاد المغرب وأيده في هذا المعنى "أرنيست مارسيي"[6] Ernest Mercier حيث اعتبرا أن منطقة "درعا" جنوب المغرب الأقصى، هي منطلق

---

[1] – لما هلك إدريس الأصغر و اقتسم بنوه ملكه، كان هذا التدبير صلا برأي وإشارة "كنزة"، زوجة إدريس الأكبر، حين لا يتنازع الأبناء والأحفاد السلطة وتنهب جهود المؤسسين هباء، للمزيد من المعرفة، انظر عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، ج4، دار بولاق، القاهرة، 1982،.

[2] – زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي، ترجمة زكي محمد حسن بك وحسن أحمد محمود، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، 1951، ص 103.

[3] – السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير الجزء الثاني،العصر الإسلامي دراسة تاريخية وحضارية وأثرية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص 480.

[4] - Gouvian ,Op.cit .p 4 .

[5] – فاطمة الزهراء قشي، قسنطينة في عهد صالح باي البايات، منشورات ميديا بلوس، قسنطينة، 2005، ص 44.

[6] - Ernest Mercier , Histoire de l'Etablissement des Arabes dans l'Afrique Septentrionale, édition Chalamel , Paris 1875. للاطلاع أكثر انظر

الأسر الشريفية، وكانت بمثابة مشتلة "Pipinière" للشرفاء الذين تبنوا الفكر الشريفي في مختلف أرجاء المغرب الأوسط خلال القرن الخامس عشر الميلادي، وكذلك أيّد هذه الوجهة "ألفرد بيل" الذي يعتبر موطن الشرفاء الأوائل الجنوب الغربي لمراكش أي منطقة "الساقية الحمراء"، أين وجد الشرفاء على حدّ قوله، خيّر ترحيب من جانب القبائل البربرية والعربية، لكن آراءً أخرى رجحت نشأةَ الشريفية وحركة انتشارها ليس فقط عبر محور : غرب / شرق، بل إنّ كثيراً من المؤرخين السابقين من أكّد أن المغرب الأوسط نال حظاً وافراً من الخطاب الشريفي، ولم ينفرد به الأدارسة في المغرب الأقصى فقط دون غيره من المناطق المجاورة، فالأدارسة وهم من العلويين، وجدوا بيئة مناسبة في كثير من المدن والمراكز في المغربين الأوسط والأقصى تنتسب لبني سليمان أو لبني محمد أو لأقربائهم، وتبدأ هذه المراكز بانتهاء حد إقليم الزاب حتى المغرب الأقصى، وقد أشار إلى بعض هذه المراكز الرحالة "اليعقوبي" الذي زار المنطقة في القرن الثالث الهجري[1]، وذكر كثيراً من المراكز التي نزل بها الشرفاء منها ، إمارة "هاز" قرب المسيلة، منطقة متيجة، حوض الشلف ومن مدنه تنس وأَغْزَرْ، مدينة "حمزة" (البويرة)، مدينة "سوق ابراهيم" على طريق تيهرت، الطريق الذي يربط بين تيهرت وتلمسان، وإمارة "تمَطْلاَس"[2].

واستدل قوفيون بمجموعة من الأحاديث النبوية الغريبة التي لم تثبت صحتها عن النبي صلى الله عليه وسلم، وإن ثبتت فلا يمكن بحال من الأحوال أن نستدل بها في إثبات الأصل الشريفي لبن قانة منها قوله عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: فيما معناه *"ان اتفاق أصحابي وأحفادي على حل قضية هو دليل قاطع"* ؟ والحديث باللغة الفرنسية هذا نصه :

" L'accord de mes compagnons ou de mes déscendants sur la solution d'une question est une preuve inviolable [3]

[1] – موسى لقبال: المرجع السابق، ص 210.
[2] – نفسه، ص 211.
[3] – Gouvian.,Op.cit .p 4.

فهل كلما اتفق قوم حول شخصية ما أو قبيلة معينة أو مسألة يعني أن هذه الشخصية مقدسة أو شريفية أو نبيلة ؟

كما استدل قوفيون أيضا بمجيئهم (أفراد أسرة بن قانة) الأرستقراطية ونُبْل سلوكهم، ومصاهرتهم لأعيان البلد في الإستدلال على أصلهم الشريف، ويبدو أن قوفيون عندما استعمل هذا المنطق القياسي كان ربما متأثرا إلى حَدٍّ ما، بِمَا كانت تعيشه طبقة النبلاء الأوروبيين في القرون الوسطى، من حياة الترف والبذخ والطبقية، دون غيرها من فئات المجتمع المحرومة، فدفعه ذلك ربما إلى الاعتقاد أن النبالة والشرف ترتبط بالمكانة المادية للفرد، وبقدر ما يرتديه من ألبسة فاخرة وما يملك من أراضٍ وعقاراتٍ وخدمٍ وعبيدٍ ؟؟

وأخيرا يعتبر قوفيون أن زواج الأسر النبيلة والأعيان من أسرة بن قانة أمثال أحمد باي القلي وسلطان توقرت المريني عبد الله سي عمر[1] وغيرهما، يمكن اعتباره دليلا على الأصل الشريفي للأسرة وهي تبريرات لا يمكن بحال أن ترقى إلى صف الأدلة القطعية، طالما أن قصة زواج الباي أحمد القلي من إحدى بنات الحاج سليمان بن قانة تبدو عادية، و لم يكن للباي حسب ما أوردته الرواية التي ذكرها كثير من المؤرخين، علم سابق بأصل الأسرة ولا بشرفها من عدمه بل كان الباعث طبيعي وبسيط، اقتران ذكر بأنثى، حملت هذه الأخيرة لأسرها بدايات تحول وانتقال من طي النسيان والشقاء إلى مراتب العز والسلطة والتمكين.

رأي ابن الشارف عبد الله علي حشلاف : بن قانة رجال شرفاء.

"ابن الشارف سيدي عبد الله بن محمد بن سيدي علي حشلاف" هو قاضي الجماعة بالجلفة ومن علمائها، عاش على ما يبدو في الفترة الممتدة من نهاية القرن التاسع وبداية القرن العشرين، أما كتابه فهو: سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول، واعتقد أن هذا الكتاب لم يستغله أحد ممن كتب في موضوع الأشراف من قبل في

[1] - Gouvian. M et E ,Op.cit .p 5.

8

حدود ما اطلعت عليه، وهو كتاب جَمَعَ فيه أنساب الشرفاء جميعا، مِمَّنْ ينحدرون من الرسول صلى الله عليه وسلم، وتقطعوا في المعمورة. ومن طرائف ونوادر هذا الكتاب، أن الشيخ ابن الشارف ذكر أنه لَمَّا كاد ينتهي من كتابة مؤلفه: اتصل به بوعزيز بن قانة أغا الزيبان وطلب منه أن يضيف أسرته إلى شجرة أنساب الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد لبى ابن الشارف طلب بن قانة وأضاف في آخر الكتاب ملحقا خاصا بأسرة بن قانة، وكتب فيه مايلي : " بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله المنفرد بالعز والتعظيم ثم الصلاة على أشرف مخلوقاته نبيه الكريم وآله ، أما بعد فلما قرب إنجاز طبع كتابنا سلسلة الأصول إلتمس منا صاحب الفضيلة سليل بيت النبوة تاج الفضلاء الكرام ونخبة أعيان الأشراف الفخام كعبة الجود والأمل ومقصد الوفود كسلفه الأول باشا أغا وشيخ العرب بوعزيز نجل المرحوم باشا أغا السيد محمد بن محمد الصغير بن علي بالقيدوم بن علي بالقيدوم بن الحاج بن قانة بن علي بن سليمان، إلحاق نسبه الشريف لكتابنا المومى إليه (المشار إليه) كي يبقى محفوظا لخلفه وخلف خلفه إلى آخره، وأطلعني على شجرة نسبه الشريف فقرأتها وتأملتها غاية التأمل فإذا هي شجرة مباركة طيبة أصلها ثابت من سيد المرسلين وفرعها من البتول أم الحسين، حررها علماءٌ أجلاءٌ وقضاةٌ بدورٌ أهلةٌ، وضعوا عليها خطوط أيديهم وَرَوْنَقُوهَا بخواتمهم، ولطولها نقتطف منها ما يتم به المقصود، وهذا النص الذي أخذناه وجد في النقل الرابع الواقع سنة 894هـ بخط قاضي القضاة السيد محمد بن عبد القادر الْبَجاوي أصلا ودارا ومنشأ القائل أن هؤلاء الأشراف المعروفون بالعلم والعمل والبرهان الكامل وأنهم ذوو الحظ الأوفر لدى أمراء بجاية وعلمائها وغيرهم من ولاة إفريقية"[1].

ثم أورد الكاتب شجرة النسب التي أطلعه عليها صاحب الطلب، وكانت رغم أن هذه الشجرة سَلَّمَهَا أغا الزيبان بن قانة للكاتب بصورة مباشرة على ما يبدو، إلا

[1] - ابن الشارف، المرجع السابق، ص ص 149 - 150.

أنها تختلف عن الشجرة التي ذكرها بن قانة في كتابه السابق ذكره وذلك في موضعين، أولهما في رواية ابن الشارف يذكر : أحمد بن عيسى بن يوسف بن عدنان بن يوسف، أما عند بوعزيز بن قانة فهي أحمد بن عيسى بن يوسف بن عدنان بن خالد بن يوسف، وأما الموضع الثاني/ ففي رواية ابن الشارف نجد عبد الله بن علي بن عيسى بن عيسى بن داود بن مهدي بن مسعود، وفي رواية بوعزيز بن قانة عبد الله بن علي بن عيسى بن يحي بن داود بن مهدي بن مسعود.

ورغم قرب الفترة الزمنية بين تلك التي كتب فيها بن قانة أغا الزيبان كتابه وهي سنة 1930 وتلك التي كتب فيها ابن الشارف هذا الكتاب الذي بأيدينا 1929، إلا أنَّ كِلاَ المُؤَلِّفَيْنِ لم يُشِرْ أحدهما إلى كتاب الآخر ولو باقتضاب واختصار فما هو السبب يا ترى ؟

ومن خلال وقفة متأنية مع هذا المؤلف يمكننا أن نسجِّل جملة من الملاحظات الأخرى الهامة منها أنَّ هذا المُؤَلِّفَ لم يكن يعلم أصلا بشرف أسرة بن قانة، الذي طلب منه زعيمها بوعزيز أغا الزيبان، والتمس منه أن يضيف أسرته، إلى قائمة الشرفاء بالمنطقة، فمعنى هذا أن شرف الأسرة لم يكن متواترا عند أهل القطر، ولو كان هذا النسب صحيحٌ وثابتٌ ومتواترٌ ومشهورٌ لما التمس أغا الزيبان من صاحب الكتاب أن يضيف أسرته إلى قائمة السلالات الشريفة، فإلحاحه على الكاتب أن يسدي له هذه الصنيعة ثم تزويده بدلائل تثبت صدق دعواه بالنسبة إليه، يدعو إلى الشكِّ والارتياب في خلفيات هذه الحادثة، وذكر ابن الشارف في مقدمة كتابه أنه اعتمد على مجموعة من الكتب التي تُعَدُّ مرجعا لكل علماء الأنساب من بينها كتاب العشماوي الذي اعتمد عليه بن قانة أغا الزيبان نفسه، ثم يورد في الملحق السابق ذكره : " وقد ثبت هذا النسب في كتب التاريخ المعتبر التي عليها الإعتماد فمن ذلك ما قرره الشيخ العشماوي في كتابه"، وهو ما يدفعنا أن نُشَكِّكَ في مدى اطلاع المُؤَلِّفِ على هذا الكتاب، ولو فعل لما احتاج أن يلتمس منه بن قانة إضافة أسرته إلى قائمة الأسر

الشريفية، ما دامت الأسرة مذكورة في كتاب العشماوي كغيرها من الأسر الشريفية الأخرى.

ومهما حاولنا الإحاطة بملابسات هذا النسب يبقى الموضوع غامضا وبحاجة إلى مزيد من البحث في المخطوطات وأرشيف الأسرة الذي لم يطلع عليه كائن بعد.

وقد ساق ابن الشارف عدة شهادات قديمة لعلماء وقضاة لإثبات صحة النسب المذكور، نقلا عن المخطوط الذي قدّمه أغا الزيان، وبعض هؤلاء ذكرهم قوفيون في كتابه أعيان المغاربة، وأورد في نفس السّق بعبارات مماثلة شهادات لبعض أعيان الجهة منهم مفتي المالكية بقسنطينة السيد الطيب بن وادفل الشريف[1]، الشيخ عبد القادر بن عبد الله المجاوي[2] مدرس العلوم الدينية والشرعية بالمدرسة الثعالبية بالجزائر والخطيب بها، وهو الشيخ الذي أشار إليه قوفيون في كتابه أعيان المغاربة، الشيخ السيد محمد بن الحاج القاسمي الحسني الحلوتي الهاملي[3]، قاضي توقرت السيد الحاج الطاهر، قاضي الحنفية بالجزائر السيد حَمُّ بن الدراجي، قاضي المالكية بالجزائر الشيخ السيد عمر بن حمدان، قاضي ومفتي قسنطينة السيد بوشريط بن سيد الحاج بن عامر، قاضي سطارنو (Saint Arnaud)[4] بقسنطينة الشـــــيخ مصطفى بن الحاج الدرويش، قاضي الحضنة السيد محمد بن الحاج الصالح، وغيرهم.

وعندما ندقق في الشهادات السبع الأولى نستنتج أن جلها اعتمدت على ما ذكره علماء بجاية وقضاتها وخاصة أولاد علي البهلولي، ويحمل بعضها عبارات زجرية

---

1 – أبت في الإفتاء نحو ثلاثين سنة توفي سنة 1907 انظر: محمد المهدي بن علي شغيب، أم الحواضر بين الماضي والحاضر "تاريخ مدينة قسنطينة"، مطبعة البعث، قسنطينة 1980، ص 315.

2 – كان "المجاوي" شديد العداوة للإستعمار ولأذنابه وكان رافضا لسياسة المهادنة والرضا بالمناصب التي يتصدق بها على العلماء. انظر: محمد المهدي بن شغيب، المرجع السابق، ص ص 302 - 303.

3 – ينتمي الشيخ القاسمي إلى "الطرقية" الذين شجعتهم سلطة الاحتلال على مقاومة الحركة الإصلاحية مطلع القرن 20 وذلك بتأسيس جمعية "رؤساء الطرق الدينية" برئاسته وكان مقرها زاوية الهامل في بوسعادة، وانضم إلى الجمعية أيضا الشيخ "سي أحمد التيجاني" من زاوية توقرت و"باشتارزي" و"ابن الحملاوي". انظر، عبد الكريم بوصفصاف، المرجع السابق، ص 193.

4 – مدينة العلمة حاليا.

لمن يقدح في نسب بن قانة أو في من أثبته من العلماء، مما يجعلنا نعتقد بوجود حملة قويةٌ قائمة ضد الأسرة، قامت بها أطراف معينة في هذه الفترة أو قبلها تقدح في نسبها وتدعو إلى إبطاله، وربما تهجمت على العلماء الذين أيّدُوا هذا الطرح لسبب أو لآخر، وإن لم يكن الأمر كذلك فما الذي يدعو العلماء والقضاة إلى استعمال مثل هذه العبارات؟ ولماذا يحرص بن قانة على تسجيل شهادات كل هؤلاء العلماء والقضاة إن لم تكن المعركة القائمة ضارية ومتأججة بين بن قانة وخصومه؟

والملاحظ أن أغلب هذه الشهادات لم يقم أصحابها بالتحقيق في صحة النسب الشريف لبن قانة من عدمه، ولم يباشروا البحث عن هذا النسب وفق الطرق العلمية الصحيحة التي ضبطها علماء الأنساب، بل اكتفوا بتزكية شهادات من سبقهم والوقوف عندها، ويؤكد ابن الشارف مرّةً أخرى بعد هذه الشهادات " أن هذا النسب الشريف صحيحٌ صريحٌ لا يرتاب عاقل في صحته لكثرة شهوده وبلوغهم الإستفاضة مع ثبوت عدالتهم، وكيف لا وهم قضاة الإسلام ومفاتي الأنام وعلماء الملة المحمدية التي يكشف بهم غياهب الجهل"[1]، مما يدفع إلى الاعتقاد بالرغبة الملحة التي عند الكاتب في إقناع قرائه بكل وسائل الترغيب والترهيب المتاحة، بعيدا عن التحقيق العلمي النزيه والموضوعي.

ولأسلوب المبالغة والإطراء والمدح مايدفعنا في الأخير للارتياب في الرواية العبارات الفخمة التي استعملها الكاتب عند وصف أسرة بن قانة والتي توحي بوجود دوافع ما وراء ذلك، من مثل قوله – بعد حديثه عن فروع الأسرة التي كانت معاصرة له آنذاك ومنها شيخ العرب وأغا الزيبان بوعزيزبن قانة : " أَمَّا قُطْبُ رَحَى مَجْدِهِمْ وذِرْوَةُ فَضْلِهِمْ وتَاجُ مِرْفَقِهِمْ وغُرَّةُ عِزِّهِمْ هو الفاضل الجليل والقدوة الأصيل تُشَدُّ له الرِّحَالُ وتخضع له رقاب الرجال حميد المكارم والخصال طيب الأخلاق كريم الشِّيَم والأعراق ذو السّماحة والوجاهة السرّي باشا أغا وشيخ العرب سيدي بوعزيز بن

[1] ابن الشارف، المرجع السابق، ص 152.

باشا أغا السيد محمد، فتسابقت الأدباء لمدحه ولهجت العرب والعجم بذكره "، وساق ابن الشارف مجموعة من القصائد التي قالها فيه بعض الشعراء بمناسبة تولّيه مشيخة العرب نقتطف منها الأبيات التالية:

يا عظيم القدر يا عالي النسب	يا كريم الأصل يا سامي الحسب
يا أبا الناصر يا بدر العـــلا	من له في الخلق أخـــلاق تحـــب
لك لو لم يك من مكرمـــــة	غير سد[1] سد أبواب الـــشغب
يا بني قانة يا أهـــل الـــحمى	يا رجال المجـــد يا أهل الحســـب
يقدم المجد إليكم خاضـــعا	راضيا مستحديا لا مغتـــصب[2].

رأي فيـــرو Charles-Louis Féraud

كتب فيرو عن أسرة بن قانة في المجلة الإفريقية لسنة 1883وقدم روايةً حاول من خلالها رسم سيناريو آخر لتاريخ الأسرة، غير الذي أراده أفرادها سواء من حيث النسب الذي أثار جدلا كبيرا أو من حيث الولاء لسلطة الإحتلال، وانتقد فيرو في مقدمة مقاله "سيروكا" إنتقادا لاذعا واصفا ما كتبه عن تاريخ الأسرة بقلة الموضوعية والقيمة التاريخية والعلمية، كيف لا وقد كتب مقاله في بسكرة مَعْقِلَ أسرة بن قانة وبين أفرادها وفي كنفهم، وكانوا يحيطون به من كل جانب وكانوا لايزالون آنذاك أقوياء بإمكانهم أن يوجهوا الرأي العام بما يملكون من قوة النفوذ والمال[3].

وانتقد "سيروكا" في روايته لتاريخ بن قانة ونَسَبِهِمْ وقال أنها رواية تفتقر للدقة وأنها خلطت بين "سليمان" الجد الأول للأسرة و"الحاج سليمان بن قانة" صهر الباي أحمد القلي[4] وبين الرجلين ثمانية أحفاد وهم بوعزيز بن قانة الأغا الحالي بن محمد

---

1 – يقصد بعبارة السد الأولى، سد "فم الخزرة" الذي بني شرق مدينة بسكرة على وادي "الأبيض" في بداية القرن العشرين، وكان لبوعزيز بن قانة دورا في إقناع الفرنسيين ببنائه.

2 – ابن الشارف، المرجع السابق، ص 127.

3 - Charles-Louis Féraud : « Notes historiques sur la province de Constantine les Beni Djellab sultants de Tongourt », in R. A . N° 26 , 1882 p 377.

4 – جميلة معاشي، الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري، رسالة ماجيستير، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، 1991.(رسالة غير منشورة).

بوعزيز بن محمد الصغير بن علي بن القيدوم بلقيدوم بن علي بن القيدوم القيدوم بن محمد المعروف بالحاج بن قانة بن علي بن *سليمان* – صهر الباي أحمد القلي– بن عبد الباقي بن محمد الشريف بن عمر بن عبد الله بن عبد الحق بن يوسف بن عمر بن علي بن *سليمان* –الجد الأول للأسرة – بن عبد العزيز إلى آخر الشجرة، وبذلك جعلت الرواية شخصية محمد بن قانة تعيش لعدة قرون من دخول الأتراك إلى قسنطينة في سنة 1534 إلى عهد أحمد باي القلي 1756[1].

والرواية " الأسطورية " –التي فَنَّدَهَا فيرو– تقول أن جد الأسرة الأول المدعو: " محمود بن قانة " كان من كبار علماء الأندلس فرّ إلى المغرب الأوسط سنة 1452 وأنه كان من أشراف الأندلس، لكنه في رحلة الطريق من الأندلس إلى المغرب يكون قد أضاع ما يثبت نسبه الشريف.

وَيذكرُ هذا المخطوطُ وفق فيرو ونقلا عن –الأقدمين– أنَّ الجد الأكبر للأسرة كان يدعى محمود بن قانة وكان عالما كبيرا ببلاد الأندلس، ولما وقعت الأندلس بيد الإسبان وأخذوا يطاردون العرب والمسلمين منه، فرَّ محمودٌ مع النازحين إلى بلاد المغرب، ولما سُئِلَ عن أصله كان يجيب بأنه شريف ينتمي إلى بيت الرسول صلى الله عليه وسلم لكنه فقد شجرة نسبه وكل الوثائق الدالة على ذلك[2]. وكانت بجاية أول محطة نزل بها محمود بن قانة ثم واصل سيره حتى بلغ مضارب قبيلة زواوة في الغرب القسنطيني، ولما بلغ رجاس[3] استقر بها نهائيا بعدما تزوج من أحدى نساء القرية[4].

ولم يمر سوى وقت قصير حتى صار محمود بن قانة ثريا بفضل ممارسته مهنة الفلاحة وتربية المواشي، فساهم في مساعدة الفقراء والمساكين الذين استأنسوا به

1- Charles-Louis Féraud , « les Beni Djellab sultants de tougourt » *Op.cit.* p 380.

2 - Charles-Louis Féraud , *Op.cit.* p 380.

3 – تقع رجاس بولاية ميلة، وتعرف اليوم بوادي النجا نسبة للواد الذي يمر قربها وهو أحد روافد الوادي الكبير "وادي الرمال" الذي يمر بمدينة قسنطينة ويصب في البحر الأبيض المتوسط شرق مدينة جيجل.

4- Charles-Louis Féraud .Op.cit . p 378.

وعظمت مكانته في قلوبهم، وفي نفس هذه الطريق سار ابنه سليمان الذي صار نفوذه كبيرا في حوض وادي الرمال من شرق سطيف حتى قسنطينة، وكان قد اختار أسلوب التنقل بين التل والصحراء في فصلي الصيف والشتاء بأتباعه. وفي إحدى السنوات قدمت مجموعة بشرية من الغرب تدعى أهل بن علي نزلوا بالقرب منه وتآلفوا فيما بينهم وتحالفوا وتعاونوا وأثمر كل ذلك بزواج ابن سليمان واسمه قانة من ابنة صخري زعيم قبيلة أهل بن علي، لكن الوُدَّ لم يستمر بينهما طويلا، فقد تعكرت الأجواء واشتعلت نار الحرب بينهما وتلتها نار الإنتقام لسنوات أخرى[1]، وخلف سليمانُ ولداً "قانة"، سار هو الآخر على نهج أبيه واستمر في سياسة أسرته بنفس الوتيرة وكذلك فعل ابنه محمد بن قانة من بعده، وبعدما كبر محمد بن قانة قرر الذهاب إلى الحج، وقال بأنه سوف يتكفل بنفقات كل من يرغب في الذهاب معه[2]، فذهب معه كثير من الناس، ولما عاد الركب من الحج أعلن أصحابه تعلقهم الشديد بمحمد بن قانة، وطردوا من مضاربهم أفراد عائلة بن صخري و لم يقبلوا بالطاعة والولاء إلا له[3].

وتواصل الرواية سرد الوقائع المختلفة التي ساهمت في بروز قوة بن قانة حيث تذكر أن عدة قبائل التفّتْ حوله فزادت قوته وقاوم الأتراك لما جاؤوا الى قسنطينة أول مرة سنة 1535، وكان يخشى أن يعودوا شتاء ففضل البقاء في قسنطينة، ولما اشتكى اتباعه من الطين والوحل أمر بحمل الرمال من الصحراء ورميها على جنبات الواد ، ومنذ ذلك التاريخ صار الواد يعرف بوادي الرمال؟[4]، ولَمَّا عَلِمَ الأتراكُ بقوة الرجل جاؤوا هذه المرة بالسلم فتركهم بن قانة يدخلون المدينة ويتعاملون مع أهلها بحرية دون سفك للدماء أوحرب وقتال[5]، واستمر بن قانة وأسرته يحكمون مناطق شاسعة من

---

1 - ibid , p 379.

2 – يبدو هذا الكلام مبالغ فيه قد يهدف إضفاء هالة من الرهبة الدينية والمكانة الروحية على محمد بن قانة.

3– Charles-Louis Féraud , Op.cit , p 379.

4 - ibid . p 377

5 – من الملاحظات التي يمكن أن نسجلها على هذه الرواية سذاجة المحتوى وبساطة أسلوب انتقال الزعامة إلى محمد بن قانة وولاء القبائل له في فترة كانت القبلية العصبية هي السائدة، فإذا قابلنا هذه الرواية بما ذكره ابن خلدون في مقدمته في فصول الرياسة فإنها حتما متسقط بين أيدينا، حيث يؤكد ابن خلدون " أن الرياسة على أهل العصبية لا تكون إلا في نسبهم" عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، المطبعة الأزهرية، القاهرة، 1930، ص 111.

قسنطينة حتى توقرت، وساعد الأتراكَ في التوغل في "سوف" و"توقرت" و"ورقلة" وإخضاع "الشّعانبة"، وعاد الجيش التركي ومعه بن قانة منتصرا الى قسنطينة وكوفئ بن قانة بما يليق به فَمُنِحَ لقب الوزير الى جانب الباي.

هذه هي الرواية التي رواها بوخراص بن قانة لفيرو، حينما كان في الخدمة العسكرية بسكرة، لكن فيرو رَدَّ بقوة على هذه الرواية معتبرا إياها مَحْضَ خَيَالٍ نَسَجَهُ بن قانة لإثبات نسبهم الشريف.

وإذا سلمنا بالرواية التي نقلها فيرو عن بوخراص فإنها لا تتفق هي الأخرى مع رواية بوعزيز بن قانة أغا الزيبان في عدة جوانب منها أن هذه الرواية تبطل عن الأسرة النسب الشريف المنحدر من السلالات الإدريسية، وربْطَهَا بأشراف الأندلس، مما يزيد في شكوك الأصل الشريفي، كما أنها لم تتعرض للذواودة الذين نافسوا أسرة بن قانة في مشيخة العرب، وتغافلت عن السجالات العسكرية الطويلة التي كانت بين الأسرتين، دون أن تغفل الأساطير والخرافات التي وردت فيها، كقصة ملء "وادي الرمال"، وتطرح الرواية لُبْسًا آخرَ يتعلق بالاسم الذي منحه سليمانُ بن قانة لولده فقد سَمَّاهُ "قانة"، فمن غير المعقول أن يأخذ الفرد اسما ولقبا واحدا"قانة بن قانة"؟ وهو ما لم نجده في كتابات تاريخ الأسرة، و لم يُشِرْ إليها بوعزيز بن قانة أغا الزيبان في كتابه، مما يدفعنا للتساؤل حول مكمن الخلل وسبب هذا الخلط ؟؟

أما رواية فيرو التي يقول أنه استخلصها بعدما استمع إلى آراء شيوخ الجهة سواء فيما يتعلق بالنسب الشريف للأسرة أو بمكانتها الإجتماعية، فيمكن تلخيصها فيمايلي :

يقول فيرو أنه في بدايات القرن 18 م كانت امرأة أرملة ذات جمال، تدعى "قانة" تعيش في إمارة كوكو[1] بمنطقة جرجرة، لكنَّ "الجماعة" طَرَدَتْهَا لتنافس الشباب

1 - مملكة "كوكو" تقع بمنطقة القبائل يعود تاريخ تأسيسها إلى الفترة التي تلت حكم الدولة الزيانية وبداية ظهور الأخوين عروج وخير الدين (القرن 16)، ويعتقد أن أصل ملوكها من الأندلسية ملوك فاس وتلمسان بعد سقوط الدولة الإدريسية، والجد الأكبر لهم هو عمار بن إدريس، وكانت العلاقات سيئة ومتوترة على ما يشبه بينها وبين

حولها لجمالها الفائق، فالتجأت إلى قرية "فليسة"، ونظرا لمروءة السكان وإشفاقهم على هذه المرأة فقد تزوجها أحد الإقطاعيين يدعى" عبد العزيز "، ومنح لإبن زوجته"يحي" قطعة أرض كانت بداية ثراء الأسرة، وتضيف الرواية أن"يحي" بقي بالقبيلة حتى توفي بها وأن قبره ظل يشاهد قرب قرية تيقناتين[1].

استقر بعض أبناء بن قانة في منطقة سباو في حوض بجاية، في قبيلة تدعى "الفنايا" وشكّلوا نواةً لأسرتهم ما تزال تدعى "آيت قانة"، وكان من عادة القبائل الهجرة خارج القرية للعمل، وهو ما دفع محمود بن قانة إلى الانتقال الى ميلة، عبر الواد الكبير وزواوة حتى وصل قرية "رجاس" قرب مدينة ميلة، حيث استقر بها بعدما تَزَوَّجَ وَكَوَّنَ عَائِلَةً كبيرة فيها–وهذا هو الحداد الذي تكلم عنه سيروكا كما يقول فيرو–.

وواصل إبْنُهُ سليمان ممارسة هذه المهنة ولما أنجب ولداً سمَّاهُ "قانة"[2]، ربما تيمّنا بجدته ولكن كيف يسمّي الذكر على تسمّية جدته الأنثى ؟ وهذا ما يدعو للنظر في رواية فيرو، بالاضافة إلى أن الواقع الإجتماعي والديني وجملة العادات والتقاليد التي كانت تحكم المجتمع الجزائري آنذاك يجعلنا نشكك في هذه الرواية، إذ لا يعقل في المنطق الإجتماعي آنذاك طرد امرأة وتشريدها وذريتها لمجرد جمالها الفاتن أو لتنافس الذكور حولها بحجة حماية شرف القبيلة وصيانة وحدتها وأمنها خاصة في منطقة اشتهرت بتمسكها بالعادات والتقاليد، فهل يعجز أفراد القبيلة على إيجاد مخرج معقول ومنطقي لهذه المشكلة وقد وقعت أمثالها مرارا في كثير من البقاع ولا تزال الذاكرة الشعبية تختزن الكثير من القصص من هذه الشاكلة.

وقد أثار فيرو بروايته إشكالية أخرى مهمة والمتمثلة في الحرفة التي كان يمارسها أفراد الأسرة هل كانت حرفة الحدادة التي بها وصلوا مدارج الرقي والدراجات

السلطة العثمانية التي نصبت بالمنطقة حامية عسكرية قوامها نحو 8000 جندي ، انظر أحمد ساحلي ، أعلام من زواوة – إقواون – مطبعة الثورة الإفريقية، الجزائر، بدون سنة، ص 50. ونظرا لموقع الإمارة المنيع في قلب جبال جرجرة فقد كان الأتراك يتحاشون الدخول في مواجهة معها، انظر:
Tahar Oussedik, le royaume de Koukou , E.N.A.L.,Alger,1986,p22

[1] - Charles-Louis Féraud .Op.cit , p 381 .
[2] - ibid, p 381 .

العليا في المسؤوليات بعد قصتهم المشهورة مع أحمد باي القلي؟ أم أنهم كانوا مزارعين بحكم استقرارهم في مناطق زراعية كبجاية ورجاص؟ وكيف استطاعوا التأقلم في ما بعد حينما تحصلوا على لقب مشيخة العرب، مع أسلوب الحياة الصحراوية حينما اتخذوا من مدينة بسكرة قاعدة أساسية لحياتهم ولمعيشتهم؟ هل بالامكان أن يَتَحَوَّلَ نَشَاطُ مجموعة بشرية ما في ظرف مائة سنة من مجموعة مزارعة إلى مجموعة تمتهن حرفة يدوية تتطلب تراكما معرفيا وتجاربيا كثيفا كحرفة"الحدادة"ثم تَستَقِرَّ في النهاية على أسلوب حياة آخر، هو أسلوب "البدو والرحل" القائم على التنقل من محيط جذب وجاف إلى محيط رطب وخصيب؟

وإذا حاولنا أن نربط بين حرفة بن قانة التي من المفترض أنهم كانوا يمارسونها في الفترة الأولى لوجودهم، قبل أن يُمَكَّنَ لَهُمُ والمتمثلة في الحدادة بقرية رجاص- ميلة- والتي كان لها الفضل في تبوئهم المراتب السامية فيما بعد، وبين لقب "بن قانة" ذَاتُهُ، وَجَدْنَا نوعا من العلاقة بين الصفة والموصوف، ففي اللغة العربية يقال : قان، يقين، قينا،وقيانة الرجل أي احترف الحدادة، وقان الحديدة صنعها وسواها[1]، ويقال أحمر قان أي شديد الإحمرار كاحمرارالحديد حينما يكون منصهراً، وفي كثير من الحالات كان يلقب صاحب الحرفة بحرفته فيقال فلان النجار نسبة لحرفة النجارة، وبائع العطور يلقب بالعطار وغير ذلك، وبمرور الوقت يمكن أن يكون قد أطلق على هؤلاء لقب بن قانة، لصنعة الحديد و اتقانها.

غَيْرَ أَنَّ بن قانة أغا الزيبان يربط إشكالية لقب عائلته بـــ: " قانه" اللفظ المترجم حرفيا للكلمة الفرنسية المنطوقة باللهجة الدارجة في مجتمعنا والمتمثّلة في: قانا Gana أيْ رَبِحَ وَاغْتَنَى، والتي أصلها Gagner [2] في اللغة الفرنسية.

[1] – الفيروزأبادي، المرجع السابق، ص 213.

[2] - BenGana .B , Op.cit , p 6.

وأما فيما يتعلق ببداية سير بن قانة في طريق الشهرة والمجد، فيميل فيرو إلى الرِّوَايَةِ المعروفة، التي تَتَحَدَّثُ عن ارتباط أحمد باي القلي[1]، حينما كان أغا محلة بمدينة القل الجزائرية، بإحدى بنات الحاج بن قانة حينما كان يقيم في نواحي مدينة رجاس بميلة، وكان يشتغل في إصلاح حذوات الخيول، وتقول الرواية التي ذكرها فيرو بإسهاب أن أحمد القلي كان كلما خرج في المحلة قاصدا مدينة القل، مرّ ببَيْتِ بن قانة الذي كان يتقن مهنة إصلاح حذوات الخيل، ومع مرور الوقت نشأت بين الرجلين علاقات طيبة، انتهت بزواج أحمد القلي بإحدى بنات بن قانة.

ويؤكد فيرو على صحة هذه المعلومات التي استقاها من سكان قسنطينة والقبائل التي تسكن حول ميلة وأكد أنه قبل 30 سنة عندما كان في حملة في هذه الجهة، كان يستمع مرارا بواسطة "بوعكاز بن عاشور" شيخ فرجيوة و"بورنان بن عز الدين" شيخ زواغة إلى روايات شيوخ المنطقة التي جَمَعَتْ أحداث الماضي، وذكروا له أنّ آبَاءَهُمْ كانوا يذهبون إلى رجاس من أجل إصلاح حذوات خيولهم، وهكذا حصل لهم اطلاع مقبول وإلمام بتاريخ المنطقة.

والملفت للنظر أنّ جل القرى والأرياف في ضواحي قسنطينة في الأزمنة الماضية كانت بها ورشات الحدادة التي تتخصص في معالجة حذوات البغال والخيول، لأنها عملية ضرورية للأنشطة الزراعية كالحرث والحصاد والدرس، فلماذا يتحمل أحمد باي القلي عناء الإنتقال إلى قرية "رجاس" بالذات، ما دام أن جل القرى المجاورة تمتهن هي الأخرى هذه الحرفة؟ وحينما نتأمل شبكة الطرقات خلال العهد العثماني نلاحظ أن الطريق الوحيد الذي يربط مدينة قسنطينة بمدينة القل الساحلية لا يمر بقرية رجاس، لأن المرور بها يعني الخروج عن خط السير الأساسي، خاصة الطريق الذي كان يسلكه البايات والضباط الأتراك (الطريق السلطاني) الذي تكون وجهة السير فيه تقود نحو

---

[1] – ويعرف هذا الباي بالقلي نسبة لمدينة القل الجزائرية غير أن رواية أخرى تنسب الباي أحمد القلي إلى مدينة كولة Kula التركية الواقعة في جنوب غرب الأناضول في إقليم روملي إلى الغرب من بحر إيجة وتبعد عنه بنحو 150 كلم.

الشمال، عبر حوض وادي الرمال، أما قرية رجاس فهي تقع غرب قسنطينة، والمرور إليها ثم التوجه نحو مدينة القل سيزيد من مضاعفة مسافة السير والمشاق، بما سوف يقطعه الراكب من أودية وجبال وعرة وغابات كثيفة، وهذا ما يدفعنا إلى الطعن في رواية فيرو أصلا التي ربطت بين أسرة بن قانة وأحمد باي القلي.

الخاتمة:

بعد هذا العرض يمكننا في نهاية المطاف أن نخلص إلى جملة من الملاحظات والاستنتاجات ستظل بحاجة دوما إلى مزيد من البحث والإثراء والتقصي منها:

إن الخطاب الشريفي وما يتعلق به من أدبيات ووثائق ونصوص لا يزال يشكل مجال بحث واسع ورحب خاصة إذا شمل البحث والإستقصاء الجهات التي شهدت الصراعات الدينية والفكرية حيث اعتنى شيوخها ورجالاتها بجمع المخطوطات التي تعود لحقب قديمة واحتفظوا بها في خزائنهم الخاصة وفي أقبية الزوايا. وكان الخطاب الشريفي أحد الأوراق الرابحة التي وظفتها قوى الإحتلال في إيجاد بنية اجتماعية جديدة تستعين بها في ضرب البنية الوحدوية للمجتمعات المغربية (الجزائر خاصة) وإفشال مشروع المقاومة بصورة عامة.

ومازال الأصل الشريفي لأسرة بن قانة غير ثابت ويثير عدة تساؤلات إلى حد الساعة ولا تزال جملة من الشكوك تحوم حوله، خاصة إذا أَقْرَنَّا هذا النسب بدرجة ولاء الأسرة لسلطة الإحتلال، بشهادة أفراد الأسرة ومؤرخي الحقبة الإستعمارية، الذين أجمعوا على أن أفراد عائلة بن قانة الذين عاصروا الحقبة الإستعمارية عملوا بكل هوادة للتمكين للمشروع التغريبي الفرنسي الكولونيالي، و لم يَشُذَّ عن هذه القاعدة أيّ من أفراد الأسرة، وهذا خلافا لكثير من أسر البايلك المعاصرة لبن قانة، التي تأرجحت بين الولاء والمقاومة.

كانت المصلحة الخاصة للأسرة وراء تحول جل مواقفها وولاءاتها في معادلة الصراع على مجال النفوذ على مر العصور والأزمنة، سواء كان الشأن بالنسبة للفترة

العثمانية أو العهد الكولونيالي، ومن أمثلة ذلك وقوف الأسرة ضد صالح باي(1792/1771) لما أراد أن يتبع سياسة الموازنة في مجال توزيع النفوذ في الجنوب القسنطيني، كما ساهمت الأسرة من جانب آخر في تقويض المقاومة الشعبية التي قادها أحمد باي بعد سقوط قسنطينة، حيث عملوا منذ البداية على تشتيت أمره وإضعاف شوكته وابتزازه لما علموا أن المرحلة المقبلة في ظله وتحت قيادته وولائه ستكون مرحلة صعبة يقل فيها نفوذهم وتنحسر فيها مجالات سيادتهم وهم الذين ألفوا البذخ والترف والحياة الهنية، ومزايا الارستقراطية.